حين تأسست مفاهيم الجدل الفلسفي غلب على الظن أن الصراع مبني على وجود المتناقضين صراعا ينتهي بغلبة أحدهما أو باندماجهما اندماجا يصنع منهما موقفا جديدا يستقل بذاته عن الأولين، وكأن الذهنية العربية الناهضة هيأتها أسباب ظرفية جعلتها فريسة هذا المفهوم.

بقلم: عبدالحفيظ بورديم*
الجزائر

قراءة نقدية في حداثة أدونيس

تثبيت المتحول

* كلية الآداب، جامعة تلمسان، الجزائر.

١ - المنطق الجدلي:

وكان أدونيس بداية جريئة تخضع مفاهيم الجمالية لمفاهيم الجدلية. حين قدم مشروعه في ثلاثة أجزاء، وسماه : « الثابت والمتحول » ولا ثالث. منذ البدء، يأسر المنطق الجدلي ناقدا يريد مقاربة رحلة الشعر العربي، وهو أسر يجعل أدونيس « نموذجا أمثل لمآزق ثقافية - حضارية هامة وعديدة. تتصل بما ارتسم من كلام لوكاش وكيتل وثيق الاتصال » [١] . وتضيق دائرة الأسر المنهجي على أدونيس حين يتابع بتجليات الثابت،، وحين يتابع بتجليات المتحول، فينتهي الأمر به إلى آفات منهجية تستجيب لضرورة المصادرة على المطلوب وإلغاء التعليل، بل تسلمه آخر الأمر إلى فوضى التردد والاضطراب.

فلنحاول مقاربة نصوصه...

النص الأول :

« **يمكن القول أن التعارض في المجتمع العربي بين القديم والمحدث يرقى، على الصعيد السياسي الاجتماعي، إلى القرن السابع الميلادي، وكانت الخلافة في مستواها الديني السياسي، على الأخص الحقل المباشر الأول لهذا التعارض، فالمعنى التقليدي أي الأصلي للخلافة هو أن يتبع الخلف السلف، في فكره وعمله، فالخلافة استمرار للأصل يزيد في تأصيله، وليست أي نوع من أنواع التغير أو الخروج** » [٢].

النص الثاني :

« **هكذا تولدت الحداثة، تاريخيا، من التفاعل أو التصادم بين موقفين أو عقليتين، في مناخ من تغير الحياة، ونشأة ظروف جديدة. ومن هنا وصف عدد من مؤسسي الحداثة الشعرية بالخروج. كان معظمهم إما من أصل غير عربي، وإما أنهم مولودون : من أب عربي وأم غير عربية. ونشؤوا إلى ذلك في وسط اجتماعي فقير، عبيدا أو موالي، وهكذا اندفعوا لإثبات وجودهم في المجتمع العربي** » [٣].

حين نقرأ هذين النصين، وقد صدر بهما أدونيس عمله، إشارة منه إلى أهميتهما، فكأنهما المسلمات البدهية الأولى التي يتأسس عليها مشروعه الجدلي للانتقال بالإنسان العربي من دورة هي الحضيض إلى دورة أسمى، كما يرى، وقد لا يتعبنا الفهم في استخلاص قاعدته الفكرية الكبرى وهي : (ضرورة تقويض الثابت وتمجيد المتحول) في إطار من إبستمولوجيا الصيرورة الدائمة.

٢ - المسلمات البدهية

ترتد مجموعة البدهيات عنده إلى خمس :

١ - الحداثة صيغة في رؤيا الوجود تجاوز القيد الزمني، لذلك يمكن استجلاء مظاهرها في القرن السابع الميلادي. فالحداثة لم تعد بنت التحولات الحادثة في القرن العشرين كما في قاموس لاروس Larousse الفرنسي [٤]، لكنها مطلب من مطالب التمدن وصيغة من صيغ التحضر.

أدونيس

٢ - الحداثة انقلاب على الركائز التي تصنع الثابت. وهي في مسار الحضارة العربية تؤول إلى نظام الخلافة. يتضاءل هذا المفهوم المتميز [٥] في وعي أدونيس ليصير ثباتا وجمودا. والآفة الكبرى في انزياح دلالة الخلافة عندما تصير أتباع الخلف للسلف. ولا ندري من أين لأدونيس مثل هذا المفهوم، لكننا نراها مصادرة على المطلوب، تجعل الخطأ المعرفي مقدمة كبرى.

٣ - تبدأ الحداثة حين يبدأ الخروج على نظام الثبات الذي تصنعه الخلافة. والخروج هو تعبير آخر عن التمرد والانسلاخ. حينئذ تأخذ الحداثة حجما أكبر من تغير الشكل الشعري وأكبر من انزياح المعنى الأدبي، إنه تطلع نحو المنظومة الاجتماعية والسياسية.

وحين يتابع أدونيس إبستمولوجيا الحداثة العربية يراها وليدة التصادم بين عقليتين : عقلية تثبيت الأصول وعقلية التغير والخروج.

٤ - تستبد الجدلية بأدونيس قارئا، لذلك ينتقل من ثنائية: الخلافة / الخروج، وثنائية: الأصل / التغير، إلى ثنائية أخرى ترصد الإنسان ذاته.

ويصوغها في شكل العرب / المولدون. ترتد الثنائيات الثلاث كلها إلى مظهرين اثنين لا غير.

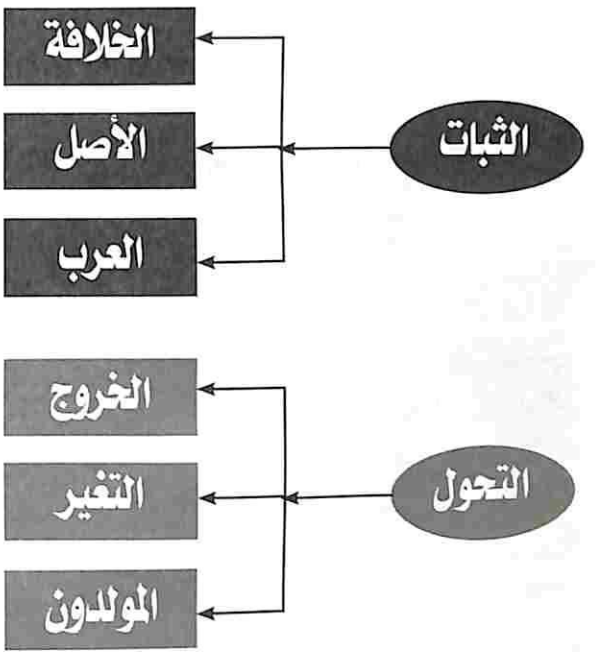

إن البناء الذهني عند أدونيس لا يستطيع أن يبصر أبعد من الصدام الثنائي، وكأنها تستدعي الزرادشتية حين بنت الوجود على صدام الظلمة بالنور، كما استدعاها نيتشه [٦] من قبل.

غير أن آفة التحليل المنهجي تكمن في القفز على حقائق التاريخ. فالصراع لم يكن بين العرب وبين المولدين إلا وفق القراءة الشعوبية والاستشراقية، وللتاريخ صوته الذي يعلو، وهو يحدثنا أن بعض الخارجين على الدولة [٧] كانوا عربا وأولهم الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما. كما أن بعض المولدين تبوؤوا أسمى المناصب وأولهم عبدالحميد الكاتب وسهل بن هارون، ولو قرأ أدونيس أحداث التاريخ بوعي الأمة لقال قولا غير الذي قيل.

٥ - يعلن المنهج الجدلي تهافته الأخير في القراءة التي ينجزها أدونيس حين يحدد الانتماء الاجتماعي للخارجين رواد الحداثة، بعد أن كانوا مولدين كلهم، صاروا فقراء عبيدا أو موالي، وكأن الحداثة تبدأ من «ثورة الفقراء»[٨]، وكأن الخلافة كانت استبدادا للأغنياء. وهذه صيغة أخرى من التأويل المتعسف لمسار التاريخ بوعي ماركسي متهافت. فهل يصدق هذا مرتكزا لقراءة قصيدة «رثاء البصرة» لابن الرومي؟ أم أن ابن الرومي - وهو من الموالي الفقراء - حين وصف شذوذ الزنج وجرائمهم كان برجوازيا؟.

إن الارتكاز إلى قصيدة ابن الرومي يجعل خروج الزنج شغبا أكثر منه ثورة، بل يجعله حرابة تأكل الأخضر وتهلك الحرث.

يقول ابن الرومي:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام
شغلها عنه بالدموع السجام
أي نوم من بعد ما حل بالبصرة
ما حل من هنات عظام
انفروا أيها الكرام خفافا
وثقالا إلى العبيد الطغام
إن قعدتم عن اللعين فأنتم
شركاء اللعين في الآثام [٩]

ما أضيق المنهج حين لا يصغي إلا لرجع الصدى، وما أضيق صوت الشعر حين تتعسف الأدوات الإجرائية لتخدم هوى جاهزا وحكما مسبقا! وكأن أدونيس بلغ من أسر الهوى والمنهج له أن لم يسمع صرخة ابن الرومي يبكي محاسن البصرة وعفاف بناتها وبهاء مساجدها، بل كأنه رأى نيران الزنج حداثة وقوافي ابن الرومي ثباتا. وستضيق عليه دائرة الجدلية ليخرج منها إلى أضرب أخرى توقعه في الشكلانية والشعرية، وهما نقيضان للأولى.

٣ - التطلعات

هكذا يفهم أدونيس الحضارة العربية الأولى: ثبات غالب وتحول قليل، وهي في زمانها الجديد تنوس بين حركتين اثنتين هما: حركة الارتداد وحركة التجاوز، ولا يمكن أن ندرك التطلعات الأدونيسية إلا ضمن مقولة الحداثة. فلنصغ إلى قوله في هذين النصين:

النص الأول:

«لا بد أولا من التوكيد على أننا لا نقدر أن نفصل بين الحداثة العربية عن الحداثة في العالم، إن إرادة الفصل باسم (الأصالة) حينا، وباسم التراث حينا آخر هي في التحليل الأخير ضد الأصالة وضد التراث، التفاعل والتبادل هما خصيصة أولى في الثقافة العربية منذ نشوئها»[١٠].

النص الثاني:

«إننا اليوم نمارس الحداثة الغربية على مستوى

(تحسين) الحياة اليومية ووسائلها. لكننا نرفضها على مستوى (تحسين) الفكر والعقل ووسائل هذا التحسين، أي أننا نأخذ المنجزات ونرفض المبادئ العقلية التي أدت إلى ابتكارها، إنه التلفيق الذي ينخر الإنسان العربي من الداخل »[١١].

فكر الأزمة لا يعكس إلا أزمة الفكر، و أدونيس صوت يردد صياغة الأزمة الطاغية، في الماضي غلب الثبات، وفي الحاضر غلب التلفيق، وكأن دورة الوجود العربي محكومة بأسر الانهيار المتجدد.

تغلب النظرة السوداوية على هذين النصين، وفيهما من آفات التحليل شيء كثير كتغييب المفاهيم والتعميم والقفز على الحقائق، لذلك يمكن أن نعيد تفكيكها لاستخلاص أهم المرتكزات التي تصنع مفاهيم الحداثة عند أدونيس وهي ثلاثة :

١ - إن الحداثة معطى عالمي تمتزج فيها منجزات الإنسانية كلها، وهذا يعني إلغاء الصيغة العربية أو أي صيغة أخرى. هكذا يرى أدونيس ضرورة التحول، فالصيغة العربية ثبات والمعطى العالمي تحول، غير أن الاستفهام يظل صارخا: من يلون المعطى العالمي بصيغته ؟ هل المعطى العالمي مجاوز للأمم والثقافات ؟ أم هو إنجاز حضارة بعينها، هي الحضارة الغالبة ؟ وهل التحلي بالمعطى العالمي يحقق الحداثة ضرورة ؟.

٢ - إن الحداثة بما هي كذلك، تصير نفيا للأصالة والتراث، وكل ارتداد إليهما هي انتكاسة عن المعطى العالمي، فهل يمكن للأفكار الحية أن تتأسس على مثل هذه الأطروحة؟ هل إثبات الأصالة يكون ضد الحداثة ؟

ويوقع أدونيس قارئه في فوضى المغالطات حين يجعل الأصالة ضد الأصالة وحين يزعم أن الحداثة ليست عربية، فكيف يجتمعان ؟.

٣ - إن تجربة الدخول العربي إلى الحداثة تبقى غير منجزة وفق التنظير الأدونيسي، يعود ذلك إلى أن التجربة ارتضت أن تأخذ بالأسباب التي هي المقتضيات العقلية والفكرية.

آفة التكديس تسيطر على هذه المقولة. ولا نفرق بين تكديس الآلات وتكديس الأفكار، بل تجعل الأخذ بأولهما دون الثاني ضربا من فقدان التوازن وضربا من التلفيق.

فهل الأخذ بمظاهر الحضارة يوجب الأخذ بمقومات الثقافة ؟.

هذه المقدمات المعرفية سيطرت على تفكير أدونيس، أسست عنده جهازا مفاهيميا به يقارب مسألة الحداثة وسياقاتها التاريخية والراهنة.

فكيف يقارب جمالية الشعر ؟

٤ - جمالية الشعر

كتب أدونيس « بيانا للحداثة » ذكر فيه أنواعا ثلاثة للحداثة يراها رؤيا جديدة. أما كونها ثلاثة، فلأنها علمية وثورية وفنية، وأما كونها رؤيا جديدة فلأن جوهرها التساؤل والاحتجاج.

وحين تساءل « **ما مدى حضور هذه المستويات وما مدى فاعليتها في الحياة العربية** »[١٢]، لم يتردد في تسجيل مفارقة كبيرة تكمن في وجود حداثة فنية مجاوزة وغياب الحداثة العلمية - الثورية.

ولم يغفل أدونيس تسجيل ظاهرة تغلب على بعض دعاة الحداثة، يسميها الأوهام، وهي: وهم الزمنية، وهم المغايرة، وهم المماثلة، وهم النثرية، وهم الاستحداث المضموني.

إن هذه الأوهام مجتمعة أو متفرقة تصرف دعاتها عن الإبداع وتقوقعهم في التقليد، لذلك « لا يصح الكلام عن الحداثة الشعرية العربية إلا بدءا من نقضها وإبطالها »[١٣].

محمود سامي البارودي

الرصافي

عبدالرحمن شكري

خليل مطران

يبدأ الكلام عن الحداثة الشعرية بعد نقض أوهامها، وتخليص الشعر من آفة التنميط. يصير الشعر حينئذ استباقا وتجاوزا.

تقود هذه المرتكزات صاحبها إلى أن يعلن في كتابه صدمة الحداثة أن :

❖ البارودي أخطأ مسار الحداثة لأنه عاد إلى الأشكال واعتبرها « حقائق مطلقة » [١٣].

❖ معروف الرصافي أخطأ مسار الحداثة لأنه « على الرغم من ثورية أفكاره يستعيد النموذج البياني التقليدي » [١٤].

❖ جماعة الديوان هي حداثة ذاتية انتصرت للرومانسية، ومهدت « لتجاوز البنية التقليدية للقصيدة العربية، وطرح مستوى آخر لكتابة الشعر وفهمه وتقويمه » [١٥]. ويبقى عبدالرحمن شكري نموذجا فنيا لكن العقاد والمازني لا قيمة فنية لشعرهما.

❖ خليل مطران هو صورة حداثة السليقة / المعاصرة وتعتبر قصائده « تجديدا مهما، إذا قورنت بالقصائد التي عاصرتها أو التي سبقتها » [١٦].

❖ حركة أبوللو هي صورة الحداثة النظرية « أسهمت إسهاما كبيرا في تجاوز شعر النهضة، بخاصة، والسلفية الشعرية، بعامة، وفي التمهيد لنشوء بنية جديدة للقصيدة، ومفهوم جديد للشعر » [١٧].

❖ جبران هو صورة الحداثة / الرؤيا التي تقوم على « الدعوة إلى تغيير الفكر والقيم والنظرة إلى الحياة، والدعوة إلى التغيير السياسي والتحرر الوطني الكامل، وذلك في ثورة شاملة تهدم الماضي وتفتح أبواب المستقبل » [١٨].

٥ - الخلاصة

كيف يمكن أن نعيد مقولات أدونيس إلى مواقعها في تجربة الحضور ؟

إن حرص أدونيس على جعل حداثة / الرؤيا هدما للماضي وتغييرا للقيم، يدفعنا إلى الجزم بأن تجربة الحضور لا تكون في فهمه، إلا ضربا من الانسلاخ عن الذات وارتماء في العالمية ■

الهوامش :

(١) نبيل سليمان : مساهمة في نقد النقد الأدبي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣، ط١، ص ٩.

(٢) أدونيس : الثابت والمتحول، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩، ط٢، ج ٣، ص ٩.

(٣) م. ن:ص ١١.

(٤) يراجع الفصل الأول، مبحث صدمة الغرب من كتابنا (تجربة الحضور).

(٥) نستعين بالسيد محمد رشيد رضا لتحقيق هذا المفهوم المتميز. يقول : « هدانا الكتاب الحق، والنظر في تاريخ الخلق إلى الاعتبار بخلافة الشعوب بعضها لبعض، في السيادة والحكم في الأرض، وبخلافة الأفراد والبيوت في الشعوب، وما فيها من حق مشروع وتراث مغصوب، وإلى ما لله تعالى في ذلك من الحكم والسنن الاجتماعية، والأحكام والسنن الشرعية ومن العهد بالإمامة العامة لبعض المرسلين، والوعد باستخلاف وارث الأرض لعباده الصالحين... ».

الخلافة : موقم للنشر، الجزائر، ١٩٩٢، ص ١.

(٦) يراجع الفصل الأول، مبحث مغامرة نيتشه، من كتابنا (تجربة الحضور).

(٧) نقصد الخروج السياسي لا الخروج المذهبي.

(٨) أدونيس : الثابت والمتحول، ج٢، ص٦٦.

(٩) عن علي شلق : ابن الرومي في الصورة والوجود، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٨٢ م،ط ١ ص ٢٣٩.

(١٠) م. س : ج٣، ص ٢٧٠.

(١١) م. ن:ص ٢٦٨.

(١٢) أدونيس : فاتحة لنهايات القرن، دار العودة، بيروت، ١٩٨٠، ط١، ص ٣٢٢.

(١٣) م. ن:ص ٣١٧.

(١٤) أدونيس : الثابت والمتحول، ج٣، ص ٥٦.

(١٥) م. ن:ص ٧٢.

(١٦) م. ن:ص ٩٠.

(١٧) م. ن:ص ١٠٤.

(١٨) م. ن:ص ١١٩.

(١٩) م. ن:ص ١٩٤.